نهاية الاستشراق وبداية الاستغراب

"من الصراع إلى التقارب" نماذج من العلوم الإنسانية

بقلم أ/عبدالعزيـــز رأس مـــال

*نشأة مصطلح الاستشراق[1] :

يؤكد آربري (A rbery) أن كلمة مستشرق كانت تعني في 1683م، (أحد أعضاء الكنيسة الشرقية أو اليونانية)،في 1691م كانت تعني الشخص الذي يعرف اللغـــات الشـــرقية، وفي تقرير ماكولي تعني عبارة "مستشرقين" أولئك الذين نادوا بالتعليم و الأدب الهنديين.

أما المستشرق الألماني"باريت"(Paret)، فيرى أن الاستشراق يختص بفقه اللغة خاصـــة، ومشـــتق مـــن كلمة "شرق" التي تعني مشرق الشمس، ومن ثم فهو علم الشـــرق، و الشرق نسبي، فهو بالنسبة للألمان ، يعني العالم السلافي ، العالم الواقع خلف "الستار الحديدي"(Osteuropaforschung). أما الشرق الذي يخص الاستشراق، فمكانـــه جغرافيا في الناحية الجنوبية الشرقية، و المصطلح يرجع إلى العصور القديمة، ويـــتحدد مـــن البحر الأبيض المتوسط، و يختص أيضا بشمال غرب إفريقيا الذي يســـمى بالمغرب، أي مغرب الشمس ، أما عند ديتريش (Dietrich) ، فتعني العبارة الباحث الذي درس الشرق و تفهمه من خلال اللغات الشرقية، و هي عديدة منها: -اللغـــات السامية و غير السامية، منها الميتة ومنها الحية، منها ما هو مهم ومنها ما هو أقل أهمية، و اللغة العربية أهم اللغات الشرقية السامية، لغة التراث الفكري، لغة

القـــرآن الكـــريم و الديـــن الإسلامي، ويشير نجيب العقيقي إلى أهمية الاستشراق، والوسائل و المنشآت العلمية التي دعمته، حتى أصبحت تؤرخ به الحضارة الإنسانية.

أما قاموس " أكسفورد الجديد" فيحدد المستشرق (Orientalit) بأنه من" تبحر في لغات الشرق و آدابه" .

بيـــنما "إدوارد سعيد" فيحدده على أنه :"مدرسة للتأويل"، حيث توجد أدواتها في المشرق، بحضارته و بأماكنه[2].

لا ننسى في هذا المقام أن نذكر أن أول مؤتمر للمستشرقين قد عقد سنة 1873م في باريس، وصدر عنه مجلدان في ثلاثة أجزاء و اللذان طبعا في باريس بين سنتي 1876 -1879م (ميشال جحا:ص280).

*-الشرق و المغرب من الاختلاف إلى الائتلاف :

يـــرى"كينيت"(E Quinet) بأن آسيا تزخر بالأنبياء ، وأوروبا بالأطباء ، ذلك في كـــتابه :"Génie des religions" P47، و يضيف "هيجو"(V . Hugo) أن الشرق، سواء كصورة أو كفكر أصبح يأخذ كل الاهتمام (Œuvres Complètes) "T1 P580. الغـــرب هو المساعد ، الشرق هو المريض ، الغرب هو المشاهد ، هو القاضي ، هو هيئة التحكيم ، الخاصة بتقييم كل وجهات السلوك الشرقي .

هاتـــه المجتمعات هي مثل المجتمعات الغربية تعددية في تصورها للأشياء، على عكس هـــذا الإلحـــاح الغـــربي الذي يتصورها مختلفة عن ماهيته، أسيرة نظرة أحادية في التفكير، و التي تجعل الغرب أعمى عن وجهات النظر المختلفة التي تتصارع.

الخشـــية مـــن الحضارة"الأخرى"على أساس الرجوع إلى تحديد هوية النمط الثقافي الأصـــلي، يمر عبر شرعية الاحتقار و الإبعاد، و التعالي، أما احتواء "المختلف" بين الطـــرفين المتصـــارعين ثقافيا :-الشرق/الغرب، و الذي يجعل كل واحد يتمسك

بموقفـــه، فيتيح اللقاء مع الآخر حيث يؤدي إلى تقييم صحيح للحضارة المستقبلة، لنصل إلى ظاهرة التثاقف ، و إبعاد النمط الأصلي.

عـــلى هذا الأساس هناك توجهين ثقافيين :-شرق/غرب، وهذا في حد ذاته نقـــد موجـــه للعـــالم المعاصر، و يدور حول موضوعية معرفية للذاكرة، و لفضاء النســـيان في نفس الوقت (على سبيل المثال ما يتعلق بالتطورية، والنسبية، والعلوم ذات الأساس الآلي) من هنا نعرف الغرب على أساس نسق من القطيعة مع التقليد، والميتافيزيقـــيا، و الغنوصـــية ، و الكونية Cosmologie على كل المستويات نحس أن هناك منطقا خاصا بالانقطاع والقطيعة ، وهذا من خلال التعارض التالي:

الشـــرق يظهـــر كوجـــه للاتصالات ، للمحافظة ، بعبارة واحدة للتقليد، ولعدم التغير/الغرب : الانطلاق،التأجج، التحرك، الحداثة العلمية، السرعة في التطور، تنوع المعارف، إرادة الاكتساح. لكن الشرق هو شروق الشمس المنتصرة ، وهي في حالة حـــبور، و انسجام و شهرة ، و من ثم فنقد العالم الغربي يمر عبر "أخذ الكلمة" من طـــرف الشـــرقيين أو يمر عبر انتقال مجازي و رمزي استعمال عبارة "الغربيين" أو "البيض" لها دلالتها في كل الأدبيات مثلما نقول "الشرقيين" أو "الجنس الأصفر" ، فالشـــرق يظهر كواقع روحي مثل الغرب ، الذي يميز عن آسيا و الصين كوحدات "سلالية"، جيو-سياسية و ثقافية".

كما أن الحراك و السفر و النفي هي مسائل توظف كتعابير مجازية عن عدم الرضى الفـــردي، وكضرورة للتنوع، و ذلك في مواجهة الحداثة الغربية التي لا تتكيف مع الوتائر البطيئة و التجذر العقيم للإطار التقليدي.

تعـــود المواجهة بين الغربي/الشرقي ، و الشرقي/ المجتث عن الحضارة ، لتظهر على الســـطح في إطـــار الـــتروع إلى اكتساب المعرفة العلمية و التقنية ، و المشاركة في الحضارة العالمية.

فالأدبـــاء و المفكرون ، حاولوا القيام ببحث إمكانية التركيب بين المشرق و المغرب ،أي التميـــيز بـــين الشكل الغربي ، و المحتوى الشرقي ، بمعنى محاولة تطبيق شكل المعرفة الغربية في محتوى المعرفة الشرقية ، وذلك بالتحرر الثقافي و الروحي ، المسهم في الـــتحرر السياســـي ، و مـــن ثم فالنزعة الإنسانية العالمية تمر عبر ممر حتمي هو "الخصوصية أو القومية الثقافية"..

إن الأفكار الثورية الغربية المجتثة من إطارها(محتواها) تصبح في الشرق أفكارا جنونية (لا ننسى دور الجنون في العالم)،

إن الشرق لا يستقبل إلا العقل ذي المستوى المتوسط في أوروبا ، أو الدرجة الدنيا للحضارة الغربية ، وذلك من خلال طاقة مهدورة دون أساس ، و دون وجهة واقعـــية ، أي ما يسمى ب "الحضارة الهجينة"، والتهجين في حد ذاته واقع ثقافي ، وليس سلالي وهو محو لكل غيرية أو تنوع..أما العالمية"Universalité) فهي من مهمة المـــثقفين ،بيـــنما الجمـــاهير الشـــعبية لا تستطيع أن تتعدى في تمثلاتها "المركزية-السلالية"(Ethnocentrisme) أو الخصوصية ..[3]

لقـــد شرح إدوارد سعيد الاستشراق من خلال مختلف التيارات الفكرية التي سادت في القـــرن19 ، و في القـــرن 20م ، حيـــث تعددت رؤى المستشرقين، وتعددت مجـــالات عمـــلهم و مـــناهجهم، والتي ربطت الاستشراق كميدان للبحث وعلم السياسة كإطار للتحليل نظرا للحاجة التي ظهرت لدى المجتمعات الإحتلالية ، لمعرفة هـــذا الشـــرق للســـيطرة عليه، و خاصة فرنسا و بريطانيا ، و فيما بعد الولايات

المتحدة ، لذلك تم إيفاد بعثات مختلفة من الساسة والعسكريين و الهواة و العلماء ، الذيـــن اكتشـــفوا الإسلام ،وأخذوا في إصدار الأحكام حول الإسلام وحول النبي محمد-ص- ، ثم توسعت لتشمل المجال الجغرافي ، ليصبح هذا المجال رهانا تتصارع علـــيه الإيديولوجـــيات و الأفكـــار والمســـلمات ، و من ثم كان هناك استشراق خفي،وآخر جلي ، فبينما يتضمن الأول الأسس المعرفية و الفلسفية التي يحتويها هذا الاختصـــاص، فـــإن الـــثاني تضـــمن المعارف الموضوعية (التاريخ، علم الاجتماع اللسانيات، الآداب ..الخ) ، ومن خلال بعض النماذج من القرن 20 م، لاحظ أن الجغرافـــيا أصـــبحت أداة لمعرفة الشرق ، و أصبح هناك تعليم خاص به و بحوث خاصة به ، و إدارة خاصة له.

صار الشرق نسق من التماثلات التي تؤطرها مجموعة من القوى التي دفعتها إلى علم الغـــرب، و إلى وعي الغرب وإلى إمبراطورية الغرب، و يظهر من هذا التحديد أنه سياســـي بالدرجـــة الأولى، حيث يبدو الاستشراق وكأنه نتيجة قوى ونشاطات سياسية .

الاستشـــراق ليس مذهبا وضعيا للشرق الموجود في كل مرحلة في الغرب ، بل هو تقلـــيد جامعي قوي ، ومجالات و مصالح محددة من طرف الرحالة ، و المؤسسات الـــتجارية ،و الحكومـــات ،و الغـــزوات العسكرية، أما قراء الروايات، و مبدعي الحكايات عن المغامرات، و المختصون في التاريخ الطبيعي والحجاج فإن الشرق هو نوع خاص لمعرفة الأماكن ، و الحضارات النوعية[4].

يؤكـــد"إدوارد ســـعيد " أن الاستشراق ينبغي أن يرقى إلى التعامل الفعلي بوصـــفه جزءا من التاريخ العلمي ، ومسائله و همومه ،لا بوصفه معلومات سرية أو ســـاحة حـــرب بينه و بين الشرق ،فالسياسة التي ترد في العرف العربي -الإسلامي

السائد إلى مواجهة متصلة مع العدو شأن لا تاريخي بامتياز، و نسبة الاستشراق إلى هذا اللا تاريخي ، تجعله هو نفسه لا تاريخي ، و بالتالي فإن أعداء الاستشراق يقعون في نفس أخطاء المستشرقين في اختزال الوقائع و تنمية ثقافة الحقد.

هناك نقد لا يتسم بالتناسق عند أحد كبار المفكرين العرب (صادق جلال العظم) ، فهو ينتقد المسلمات التي وصل إليها إدوارد سعيد ، و التي صنفها في قائمة الثوابت، خاصة فيما يتعلق بتمجيده"للويس ماسينيون"، و"جيب"إلا أنه يتوجه في القسم الثاني من كتابه إلى الحركات التي يسميها "إسلامانية"-تعبير الكاتب- و التي صنعت عنوان كتابه"الاستشراق المعكوس" ،هذا الوصف وإن كان يعكس بعض القضايا الجوهرية التي تعبر عن ضيق الأفق الفكري لدى بعض ممثلي هذا التيار وضيق البعد في مجال الممارسات ، إلا أن هذا الكتاب الذي ألف في 1981م ، يدمج بطريقة قسرية بعض المفكرين في الأنتلجانسيا الإسلامانية مثل : أدونيس، أنور عبد المالك وغيرهم..

إن الكتاب نقد للاستشراق ،و الاستشراق المعكوس، ولإدوارد سعيد، وللإسلامانيين، و لكنه لا يعدو سجلا إيديولوجيا على أنساق فكرية متباينة ، ولكنها أكثر تنظيما[5].

لقد كان الاستشراق الألماني ،نشطا ،خاصة في مجال التصوف و الأدب، ينبهنا فايشر أن اللغة الألمانية في حد ذاتها ذات طبيعة شرقية ، وهذا ما يقربها من اللغات الشرقية ، و خاصة اللغة العربية، ويرشح لنا الصدمة التي وقعت للشعراء الألمان في البداية، و خاصة" غوته" Goethe ، لكنهم ما يفتأون يحبونها ثم يكتبون عنها، أو ينظمون أبياتا عنها، أو يؤلفون مسرحيات مثلما فعل "غوته مع النبي- ص- أما تأثير التصوف الإسلامي على التصوف المسيحي فيظهر لدى الإسباني

"رامـــون لول"، ما يهمنا هو أن الاستشراق الحالي ليس وليد الأمس القريب ، بل الأمـــس البعيد ،فرامون لول عاصر القرن 13م، وأخذ عن المتصوفة الذين سبقوه أو عاصروه مثل : أبوأحمد الغزالي ، أحمد الغزالي ، القشيري ، ابن عربي ، الكلاباذي ...الخ

لقـــد كـــان "غوته" أحسن ممثل للحوار بين الشرق الإسلامي و الغرب الألماني ،في بيـــت من أبياته يقول:-"من عرف نفسه و الآخرين لابد أن يعلم حينئذ .: أن لا انفصام لعروة بين مشرق ومغرب

" Wer sich selbst und andere kennt wird auch hier erkennen orient und okzident sind nicht mehr zu trennen

في مـــدح محمد إقبال للشاعرين جلال الدين الرومي و غوته في كتابه "بيام مشرق " يقول:

شاعر الألمان في روض إرم .: فاز بالصحبة من شيخ العجم.

(.....)

قضى للعارف بالسر القديم .: ما وعى إبليس و الشيخ الحكيم.

(.....)

قد خلا فكرك في القلب السليم.: فأوجد الروح في الكون القديم .

(.....)

قد تجلى لسعيد ألمعي.: مكر إبليس و عشق الآدمي .[6]

لقـــد كان "غوته"يمثل ذلك النمط من المفكرين الذين كانت لهم صورة واضحة ، وفهم عميق للإسلام يصل في بعض الأحيان إلى تمثله ، بل وصل به الأمر إلى رفض قـــاعدة التثليـــث الـــتي هـــي أساسية في الدين المسيحي بمختلف مذاهبه، والإيمان

بالوحدانية بل تعظيمها ،كما أن حديثه و شعره في الديوان الشرقي -الغربي ، الذي ألفه ينوه بالنبي محمد-ص-، ويذكر فضائله و مكارمه أكثر مما يذكرها شاعر مسلم، لقد كان متأثرا بالمشرق إلى حد الوله فهو يوظف الآيات القرآنية والأحاديث و المأثور من الحكمة الشرقية : إنه الاستشراق الموضوعي ، و الخطاب الواعي في إطار حوار الحضارات المبني على التعايش ، و الفهم ، و التفهم.

وقد وصف هاته الحالة الوجدانية بقوله:"في ميدان الأفكار يرتبط الكل بالحماس، وفي عالم الوقائع يرتبط الكل بالمثابرة"[7] لم يقتصر التأثير العربي في الأدب و الشعر بل تعدى إلى الجانب العلمي كما هو معروف، بل وفي الحياة الاجتماعية والثقافية للأوروبيين ، و قد أفردت " زغريد هونكه " sigrid hunke " فصلا كاملا عن علاقة الشرق بالغرب و تأثر الإمبراطور " فريديريك الثاني " بالثقافة العلمية والدبلوماسية العربية ، في بلاطه كانت الثقافة العربية حاضرة ، بل وصل الأمر بالأميرات إلى اتباع الدين الإسلامي الذي تلقينه من جواريهن ، ولما اكتشف الإمبراطور هذا الأمر لم يبد امتعاضا و لا استنكارا ، لقد كان هذا المثال نموذجا للتآلف بين العربي - المسلم و الجرماني ، و قد ذكرت هونكه أن العربي يلتقي مع الجرماني في الرؤيا الواضحة و النافذة للطبيعة الواقعية للأشياء ، وهذا ما يختلفان فيه مع علماء الغرب .

هذا النمط من التفكير الاستشراقي يعكس خطابا عقلانيا ، علميا ، غير عنصري ، يفسر دورة الحضارات، ويستجيب للحقائق التاريخية " فكل أمة لها ما كسبت و عليها ما اكتست ": - فالغرب في القرن الثالث عشر ميلادي كان متأثرا إلى حد كبير بأدبيات الشرق و سلوكه ، و نمط حياته ، و ذوقه الفني العالي[8] .

*-الجانب الاجتماعي أو النهاية الحتمية للاستشراق التقليدي :

لم يهتم الاستشراق التقليدي كثيرا بمشكلات البنية الاجتماعية و لا حتى بقضايا الاقتصاد والسياسة ، لقد وصف المستشرقون النظام الاجتماغي الإسلامي كمجموعة وحدات عمودية منفصلة و مستقلة ذاتيا ، فضلا عن وجود نظرية أو حتى تصور للبنية الإجتماعية التي سموها إسلامية . قدم جيب و بون " . GIBB BOWEN" تصورا استشراقا جديدا ، بانقسام المحكومين إلى وحدات عديدة شبه مستقلة (مثل القبائل و الحرف المهنية و القرى والجماعات التي لم يتأثر استقرارها الاجتماعي بتقلبات الإمبراطورية ككل ، لم يأخذ المجتمع الإسلامي شكل الوحدة الاجتماعية المتكاملة بل تألف من فسيفساء من المجموعات الاجتماعية المعزولة والمكتفية ذاتيا ، لقد أعطى الإسلام الشرعية للمسيحيين (أهل الكتاب) و الاستقلال الذاتي و الحكم الذاتي للأقليات (المسيحيين ، اليهود ، الأرمن) ، فتألف في كلّ بلد فسيفساء من الشعوب[9] . لكن تلازمت نظرية المجتمع الفسيفسائي بنظرية الاستبداد الشرقي : فالتجزيئية تتصل بالحياة المدنية لدى الجغرافيا المدينية الاستشراقية من حيث انقسام السلالات و الديانات و الثقافات حسب التصور الاستشراقي رغم وجود شيء من التضامن الاجتماعي .

ومن ثم تنتج نظرية الفسيفساء (الاستبداد الشرقي و المدنية المنقسمة والنخب الدائرة) صعوبة نظرية هامة حسب "تيرنر" :- توحيد النظام الاجتماعي من خلال آليات الطرق الصوفية و العلماء و الشريعة (القيم الإسلامية) و انقسامه بالنسبة للسلالة و التنضيد والرابطة .

لم تقتصـــر هذه النظرة الخاصة للتنظيم الاجتماعي الإسلامي على المؤرخين المستشرقين بل يعاد إنتاجها في الأبحاث المعاصرة لعلماء الاجتماع و علماء السياسة، و قـــد ظهـــر أن منهجـــية التحليل عند "بل" " BELL " الذي يعمد إلى التصنيف الفيـــبري للطـــبقة و الـــتي تعـــتمد عـــلى المرتبة و القوة التي تستخرج من تحليل "داهـــرندورف" "DAHRENDORF " و" لينســـكي" "LINSKY " و "بارسونز"." PARSONS " و التي تعطي الأولوية للسياسي وللسلطة على حساب نمط الإنتاج .

الـــنظرية الـــتعددية هي طراز سوسيولوجي للنموذج الفسيفسائي التقليدي حيث يضاف مفهوم الشرائح الاجتماعية إلى قائمة المجموعات الاجتماعية الموجودة السلالة و الدين .

حسب فيبر "VIWER " عرقلت البنية الفسيفسائية للمدينة الإسلامية و الروح العســـكرية للإسلام عملية تطور الطبقة الوسطى خلاقة من الصناعيين و التجار ، فكـــان الواقـــع الأبرز في التركيب الطبقي للمدينة الإسلامية برأي المستشرقين هو هيمنة الملاكين الجبائيين الذين استمدوا دخلهم من الزراعة على حساب حياة المدن، في غياب برجوازية مدينية مستقلة ذاتيا .

تســـود الفوضـــى و ســـوء الفهم تفسير المستشرقين للبنية الاجتماعية ، إذ يســـتخدمون مجموعـــة تظـــم أنـــواع عديدة من الشرائح المتوسطة و قد اجتهد المستشرقون لإثبات أن الإسلام لم يعادي التجارة أو التجار ، و أن الإسلام لم يكن حاجـــزا في طـــريق الـــتطور الرأسمالي ردا على جدال (فيبر) و (تاوني) .. أفضت محـــاولات المستشرقين إلى فرضيات متناقضة تماما ، حين حاولوا إظهار أن التجار " الذيـــن وصـــفوهم خطأ بالبرجوازية " وجدوا في العصور الإسلامية الوسطى و أن الإسلام لم يتناف مع الرأسمالية .

فكرة التنضيد الاجتماعي ينظمها الفكر الاستشراقي بمعيار ثلاثة أنماط إنتاجية سابقة للرأسمالية: - الإقطاعي - الجبائي - الرحلي ، و يعتقد فيبر أنها فرضت قيودا على نمو برجوازية محتملة لأن الإسلام حسبه أضفى الشرف الاجتماعي على خدام الدولـــة (الجنود و الموظفين) بدلا من التجار ، فأصبحت التجارة في الإمبراطورية حصة جماعات الأقليات و خاصة المسيحيين و اليهود منهم .

نقصد بالاستشراق هنا ، عقدة المعتقدات و النظريات و المواقف التي تتخلل مســـاحات واســـعة من الجغرافيا والاقتصاد و علم الاجتماع و ليس فقط الأعمال التقليدية للدراسات الإسلامية .

لمجـــتمع الغربي - كما لاحظنا سابقا - رمز للحركية من خلال الديمقراطية؛ والمجتمع الشرقي ، متخلف وراكض و متراجع منذ نشأته (غياب الطبقة الوسطى ، غياب المدينة، غياب الحقوق السياسية ، غياب الثورات، فشل الحضارة الإسلامية في إنشاء رأسمالية أو توليد شخصيات حديثة أو تحويل ذاتها إلى ثقافة جذرية علمانية - عـــدم التماسك النظري في النمط الآسيوي للإنتاج -) حين يرى الاستشراق في الإســـلام إسمنتا يمسك بالفسيفساء المهترئة لمجتمعات الشرق الأوسط ، فإنه يصبح بذلـــك شبيها و بقوة بالنظرة الدوركهايمية للدين كمصدر للوظائف التكاملية في النظام الاجتماعي .

عـــلم الاجتماع كإنشاء للخطاب ، يحتوي على تقليد نقدي للذات يؤسس بانـــتظام عـــلى شكل السوسيولوجيا الانعكاسية ، أو السوسيولوجيا الجذرية ، أو السوسيولوجيا النقدية .

اتفـــق مع تيرنر بأن ما نحتاجه اليوم ، هو شيء غير الاعتراض ، على بعض المستشـــرقين الذيـــن لم يكونوا حياديين أو موضوعيين أو أنهم انسحبوا من العالم

الحقـــيقي للسياســـة في الشـــرق الأوســـط إلى برج عاجي من فقه اللغة و الشعر والجماليات ..

بـــل مـــا تتطلبه نهاية الاستشراق من نقد أساسي للجذور النظرية و المعرفية للكـــتابات الاستشراقية التي تغلق التقليد القديم حول الاستبداد الشرقي و المجتمعات الفسيفســـائية و المدينة الإسلامية ؛ نهاية الاستشراق تتطلب نهاية أشكال معينة من الفكر و إنشاء نوع جديد من التحليل[9].

لـــيس بـــالجديد أن نقول أن الحضور الثقافي الإسلامي في إسبانيا و الجزيرة الإيبرية كان يمثل الثقافة "الغالبة "، تجاه الثقافة الأوربية " المغلوبة "، في نمط المعيشة و في اللغـــة ، و لكـــن توسع اتصال الأوربيين من خلال المساجلات والحروب ، واتســـاع المـــيدان المتاح لمزاج الفنان و الرحالة الغرائبي والحاج المؤمن و الفضولي الباحـــث عـــن اكتشاف جديد ، هو ما هز مواقع الغالب و المغلوب ؛ يؤكد على ذلك رودنسن " RODINSON " بقوله : – " منذ القرن الحادي عشر ميلادي ، ظهر الاهـــتمام بمـــيدان الفلسفة و العلوم التجريبية التي أحدثت تغيرا في صورة العربي – المســـلم بعد تعرف الغرب على العلماء العرب و المسلمين ، و بعد ترجمة الكتب في الفلســـفة و الطـــب والفلك و الرياضيات خاصة بعد فتح طليطلة سنة 1085م ، حيث أصبحت مركزا "علميا و ثقافيا " .

تتسم أعمال رودنسن بالثراء و التنوع ،.و هو لم يرتبط بشخصيات محددة في الـــتاريخ الإســـلامي كما فعّل ماسينيون، بل رغب في التطرف إلى مواضيع أكثر شمولية حيث قصد الشرق للتعرف على المجموعات " الشعوب، المناطق ، المجتمعات، الثقافات ، الخ ..."

في إطـــار تاريخي ، و منهجه يندرج في إطار المنهج الجدلي ، الذي يفيدُنا أن العـــلم ينـــتج من التناقض و من الأخطاء المصححة ، و كتابه المعروف " الإسلام والرأسمالية " كان هو مجال تطبيق هذا المنهج بامتياز .

الجانـــب السلبي للحروب الصليبية أنها صيغت في قالب من التعصب ضد " الكفار و الوثنيين " أي المسلمين – و هي تعابير تعبر عن الجهل ، و عدم الاحتكاك الـــذي ينتج عن ضعف الاتصال المرتبط بالنظام القيمي الديني المغلق ، و هذا الأمر تجـــاوز الإسلام كدين ليطال أصحاب الفرق و المذاهب المسيحية الأخرى ، العالم كـــان متديـــنا ، و ســـجاله كان دينيا متزمتا ، و هذا لم يمنع من الصورة الإيجابية لصـــلاح الـــدن الأيوبي ، و ظهور " مستعمرة عربية "أقامها في إيطاليا في النصف الـــثاني مـــن القـــرن الثالث عشر ميلادي " فريديريك الثاني " المحب للمسلمين ، والمعجـــب بثقافـــتهم وحضارتهم .. لكن في القرن السادس عشر ميلادي حين قام لورانس روفولوف برحلته إلى بلاد المسلمين و كتب نتائج هاته الرحلة المتعاطفة مع المسلمين و أنماط عيشهم ، طرد من وظيفته في أكسبورغ بألمانيا ، لتعارض ما كتبه مـــع المعـــايير المألوفة آنذاك و بعد اكتشاف ألف ليلة و ليلة ،و حكايات شهرزاد والســـندباد البحري ، وترجمتها في القرن الثامن عشر ميلادي تراجع التأثير الديني – الغـــيبي و حـــدث التثاقف بين شعوب الشرق و الغرب ، و هنا نشأت القوة التي أفضـــت إلى الاحـــتلال الأوربي الـــتي استعادت ذاكرته حروب الجزيرة الإيبرية ، والســـلطنة العثمانـــية ، و كان رد الفعل عنصريا لم يترك مكانا للقيم والتصورات والأفكـــار .. ثم ظهـــر رينان " E / RENAN " الذي اعتبر الإسلام والمسيحية دينان عالميان على عكس الأديان والحضارات الأسيوية التي تعتبر" محلية " رغم ما تتحفظ فيه من بعض الآراء الأخرى له و التي تتعارض مع الحقائق الواقعية .

إن القرب الجغرافي بين بلاد المسيحيين (أوربا) و بلاد المسلمين قد أثر على أحكام و ممارسات كثيرة حيال أمم و شعوب و أديان في أوروبا و خارجها و على تمـــاس مع مسيحييها حتى القرآن ترجم في حيز يسوده الجهل و الانحياز و التعصب .. بعـــد ذلك بدأت التيارات الإيديولوجية تكتسح هذا المجال، و حلت المغالاة في النسبية الثقافية محل الدراسات الأكاديمية العلمية الرصينة .

و كأن المناظرة أصبحت مختزلة في نظرية الداخل (نحن) ، و نظرية الخارج (المستشرقون و من ورائهم الغرب) هي التي تحدد زمننا و زمنهم ! و عالمنـــــــا و عـــالمهم! و أصبح الربط سهلا بين الجزئي (الاستشراق) ، والكلي (الغرب) في مفهـــوم واحد ، و من ثم أصبح " العربي- المسلم " كائنا ثابتا لا يتغير يتعرض لهذا الشر القادم من الغرب ومن الاستشراق.

و إذا عزلـــنا الصورة المتوهمة و المتخيلة بأن الغرب اخترع الشرق ، و نقوم بتحلـــيل علاقـــة العـــرب والمسلمين بالعالم المعاصر، نلاحظ أنهم يرون بأنه يتسم بانحطـــاط أخلاقـــي و تفتت عائلي وبالتآمر من خلال السيطرة اليهودية على كل شـــيء، و انتشار مرض " السيدا " لكن هاته الظواهر نفسها موجودة في البلدان " الشرقية " .

يذكر أمين معلوف بأن الغرب كف على أن يكون صليبيا منذ سبعة قرون ، و هو علماني وصناعي حاليا ، ولكن العرب مازالوا يخوضون هذه الحرب المتوهمة ، فالعـــرب و المسلمين يخترعون أوربا كعدو لا يموت بطريقة وهمية، فعدم موته يبرر لخصومه الحياة -كما يؤكد حازم صاغية -[11].

لذلـــك لا مـــناص من الاعتراف المتبادل بقيم الآخر ، و تجاوز الجهل الذي حـــدث في الماضـــي ، ونســـيان الجـــور وتجديد المعارف ، و التقييم الموضوعي

للاختلاف، و لا بد من التفاهم و الاتفاق مكان الجدل العقيم و الصراع الذي انعكس على الوعي الجماعي للأمم المتصارعة ، فأصبحت ردود الفعل المتسرعة والأفكار المسبقة تأخذ مكان المعرفة الجيدة ، و لا بد من مصالحة على أساس برنامج مشترك للقيم ، من خلال حوار يرقي القيم الإنسانية ، والأخوة بين البشر ، بل حوار الصبر الذي يميز الدين الإسلامي عن غيره من الأديان [12]. أما أهم وجوه الاستشراق الجديد فهم لويس ماسينيون و كارل بروكلمان الذي تتلمذ على يد ولهاوزن و بارتولد ، أما لاووست و كوربان وآخرهم أندري ميكال و جاك بيرك فهم يمثلون جيلا جديدا ربط بين العلوم الإنسانية والاستشراق كحقل معرفي

أما ماسينيون فقد تخصص في موضوع التصوف الإسلامي ، و العمل الكبير الذي يشتهر به هو "الحلاج" الذي هو موضوع و مجال جديد يسمح بالربط بين التصوف كظاهرة ، و مجتمع العراق آنذاك ذو المسحة الإيرانية كفضاء و حقل واقعي ، فهو يكتب عن العرب ، و عن الصراع بين إسماعيل و إسرائيل ، من حيث أن التاريخ العربي يبدأ بدموع هاجر .. لقد كان منشغلا بالإسلام التراثي- العقيدي مثله مثل لاووست و كوربان ، الأول تناول الإسلام السني (ابن تيمية و تاريخ الفرق الإسلامية) ، و الثاني تناول الإسلام الشيعي و التراث الفلسفي و الصوفي والإيراني . أما "ميكال" في كتابه الإسلام و حضارته من القرن السابع إلى القرن العشرين ، والذي قسمه إلى حقب متوافقة مع الواقع الزمني للمجتمع الإسلامي ، حيث قلص فيه من الثغرات الإخبارية التي كانت منتشرة في التاريخ الوصفي للمجتمعات العربية - الإسلامية التي لا تبرز الطوائف و الفئات الاجتماعية إلا من خلال الضرورة القصوى أثناء الاضطرابات و الأزمات التي تسمى مجازا بالفتنة ومهمته كأحد جغرافيي الإسلام المرموقين جعلته بكثير من الفطنة يتعرض إلى

الحـــرف و الممارسات و النشاطات الاقتصادية والتطور الثقافي للإسلام من الناحية المجالـــية ، كمـــا تخطى عتبة الاستشراق التقليدي ، نتيجة لجمعه لشتات المعلومات الموزعـــة على المصادر التراثية الكبرى و المخطوطات التي تزخر بها المكتبات و التي تعكـــس الـــتاريخ الاجتماعي للمجتمعات الإسلامية ، كما أول العلاقات الخفية وموازين القوى التي كانت تربط بين المصاهرة العائلية، و قيام الخلافة الإسلامية بعد الخلافة الراشدة التي لم تكن حيادية[13]

آدم ميتز Adam Mitz أحد عظماء الفكر الألماني يحلل القرن الرابع الهجري ، أو العاشـــر الميلادي، من خلال جوانب تعكس قطعا من الحياة الاجتماعية / الدينية كما كان يعيشها اهلها ، سواء من ناحية الدين أو العادات أو الأخلاق أو التصوف أو الأشـــراف أو العـــلماء و علاقتهم بالخلافة، و أحوال المعيشة ، و كما نلاحظ دائمـــا، فـــإن طبـــيعة الاستشراق الألماني ينحو في تحليله إلى الميل بصورة واضحة وصـــادقة لتحليل الواقع التاريخي بطريقة موضوعية ، و هو مكتمل من ناحية البنية المنهجـــية للتحليل الاستشراقي الذي يعمد إلى استنطاق المصادر التراثية، تأخذ فيه الســـير والـــنظم أشكالا متواترة، و هي تعطي للخطاب الاستشراقي صورة محاكية لـــلخطاب الـــتراثي في عمومه و هذا ما نلاحظه أيضا عند درمنغهام Dermenghem الذي يستعرض الحياة الصوفية و السير الذاتية لعدد معتبر من أقطاب التصوف على ممر العصور[14].

أمـــا بـــل BELL الذي أشرنا إليه سابقا ، فدراسته عن الفرق الإسلامية في الشـــمال الإفـــريقي ، ليســـت دراسة أكاديمية بقدر ما هي تشريح للإناسة الدينية (الأنثروبولوجيا الدينية) التي تشرح الواقع الاجتماعي/الاقتصادي/السياسي ، برؤيا نافذة إلى العمق ، لقد كان ممتازا في تحليله ، فهو خطاب لاستشراق جديد ، تاريخي

في مضـــامينه ، ذو تركيب منهجي متناسق ، و ما زاده تألقا هو الترجمة الفريدة من نوعهـــا لعبد الرحمن بدوي ، فأسلوبه في الترجمة يوحي و كأن الكتاب كتب باللغة العربـــية ، بسلالتها و دقتها و متانتها التي تبتعد عن التعقيد ، ونفس الملاحظة يمكن إدراجها في ترجمة عبد الهادي أبوريدة لكتاب "الحضارة الإسلامية"(15)

*- الحقول الاجتماعية للاستشراق (نموذج المجتمع المغاربي ونموذج الجزائر) :

نعـــود إلى "بـــيرك" حيث برز لديه الاقتراب أكثر من المواضيع ذات الطابع الـــتاريخي ، رغـــم كونهـــا تضـــم بعـــض العلـــوم الاجتماعية مثل علم الإناسة (الأنثروبولوجـــيا) ، عـــلم القانون ، علم الاجتماع ، علم السلالة البشرية ، علم الأنســـاب ، و هذا ما دفع بالاستشراق خطوات إلى الأمام ، حتى أصبح يطلق على "بـــيرك" نفسه بالمستعرب ، نظرا لموضوعيته ، و تمكنه من استيعاب و تمثل الحقائق السوســـيولوجية خاصة تلك المنتظمة في دراسات وصفية "MONOGRAPHIES" في المـــنطقة المغاربـــية بين 1930-1960 في كتابه من الفرات إلى الأطلس يتبين أن الكاتـــب له اطلاع واسع على الثقافة الإسلامية ، و تمكنه من تحليل المجال المغاربي خاصـــة ، فالثقافة الدينية المغاربية من ناحية علم الاجتماع الديني سواء في أشكالها الرمزية أو السيميائية (المصطلحات و الألفاظ المستعملة) لها دلالات ضاربة في القدم قـــدم حضارة العرب، فمصطلحات التثاقف و القياسة و الفراسة ليست غريبة عن الـــثقافة العربـــية ، و نفس الأمر بالنسبة للمعارف التي تتصل بها ، أما الصراع بين الفقهـــاء و المتصـــوفة ، فقد انعكس على مجال العلاقات الاجتماعية ، و التمايزات الاجتماعية داخل المجتمع المغاربي ، ففي حين أن الفقهاء كانت لهم الكلمة الفصل في الحضـــارة الأندلســـية (محاكمة ابن رشد) ، و هم الذين كانوا يمثلون القيادة، فإن

المتصـــوفة اســـتحوذوا على القاعدة الشعبية ، و من ثم فإن المرابطين و الاخوانيات الذيـــن بنوا طريقتهم على التصوف ، كان لهم دعم شعبي سواء في الأرياف أو في المدن ، و قد كان المغرب الأوسط (الجزائر الحالية) ممثلا لهذا الدور بامتياز[16].

أولى الاستشـــراق اهتماما بالجزائر ، و حول هذا القطر هناك تقسيم للمجال بـــين عنصـــرين سلاليين :-عرب،بربر .. و من هنا ظهرت الكتابات المتناقضة في وصـــف العـــربي و البربري، فتارة يظهر الأول بأنه شجاع ، فارس، نبيل، و الثاني صـــارم ، و عقـــلاني مستعد للبيئة الحضرية، و تارة أخرى فإن العربي المشين ذي التقلـــيد السياسي الاستبدادي يتعارض مع البربري الهمجي النبيل المقيم في حالة من الديمقراطـــية القبلـــية – ذكرها بوضوح "فاتان" J .C.Vatin في كتابه L'Algérie des anthropologues

لقد عمدت إلى اختيار "بورديو" P.Bourdieu من بين جمهرة من المستشرقين الذيـــن كتبوا أثناء احتلال الجزائر ، لأنه الأكثر معاصرة ، و لأن هؤلاء العلماء – وفي بعـــض الأحيان الهواة و المغامرين و كتبة التقارير – في التخصصات الاجتماعية قـــد أشـــبعوا درسا و تحليلا من طرف أساتذة التخصص، والمقبلين على الدراسات الأكاديمية العليا ..

لكنني سأتناوله من وجهة غير مألوفة ، و هو الاقتصار على الدراستين حول الجزائر ، فالأولى هي دراسة لبنيات المجتمع العميق و عناصر تكوينه(القبيلة – الأسرة – البنى الاجتماعية – السلوك والأخلاق الدينية – الثقافة) ، يحاول هذا الخطاب أن يظهـــر كمـــندد بالاحتلال (يسميه الاستعمار - وأنا لا أوافق على هذه الكلمة وحـــتى على العبارة الهجينة- كولونيالي-) الذي قام بترع الأراضي وتقسيم المجتمع وتجزئـــته و تشتيته ، و الآثار السلبية الناجمة عن ذلك.. لكن هذا الخطاب لم يكن

مـــتجددا ، وإنمـــا يدخل في سياق علم السلالة الاحتلالي الذي يعتمد على قواعد منهجية ثابتة في التصنيف، وذلك بتأثير المصادر و المراجع التي اعتمد عليها ، و التي لم يجعـــل مســـافة بينه و بينها ، وهذا يبين أن التيار الجذري في المدرسة الفرنسية ، ومـــن بين ممثليه "بورديو" لا يفتأ أن يكون تلافقيا حين يتعلق الأمر بالخصوصيات الجزائرية ، فهو خطاب من طبيعة ثانية[17].

في قســـم مـــن كتابه الثاني ، يقوم ببعض المقابلات لمعرفة التغير الاجتماعي، ويطرح عموميات لا تفتأ أن تصبح أحكاما متسرعة ، تثبت آراءه في كتابه الأول : "علم اجتماع الجزائر" ، فهو لا يستلخص من مقابلاته نقدا للنسق الاحتلالي ، بقدر مـــا همـــو نقـــد للأشـــخاص الذين يمثلون هذا النظام ، ولا نعرف من هم هؤلاء المســـتجوبين ؟ و ما موقفهم من الثورة التحريرية ؟ و رغم أنه يطرح بعض المظاهر الســـلبية الـــتي مازالـــت منتشـــرة في مجتمعنا الجزائري إلا أن الخطاب ذي الطابع الاجـــتماعي لا يلبث أن يفقد بريقه حين يقارن بين الآمال و الحظوظ .. و لكن ما يهمـــنا في تلك المرحلة (1960) هو تغير القيم التي كانت تؤكد على مكانة المعرفة والمستوى التعليمي في صنع الآمال - حيث كان يعتبرها غير واقعية - إلى قيم جديدة منتكســـة برزت في سنوات الفوضى و الجنون التي عاشتها الجزائر، والتي نسميها - مـــرحلة اللاتمايز - التي نعيش آثارها لحد الآن ، فاختلطت القيم و المعايير ، وهذه الرؤيا التي كان من المفروض أن تكون إستشراقية -وهي من صميم علم الاجتماع- لم نـــلحظها عـــند "بورديـــو" ، حيـــث لم يصل إلى النتيجة المرتقبة لهاته الفئات الاجتماعـــية المقهورة بالمدن ، و أعطى للنسق الاحتلالي شهادة البراءة ، لكن هذه الـــرؤيا نجدهـــا عند كاتب مثل "فرانز فانون F . FANON» الذي كتب عن "علم اجتماع ثورة"[18]

الهوامش

1-ميشال جحا : الدراسات العربية و الإسلامية في أوربا- معهد الإنماء العربي –بيروت 1982 .

2- E . SAID : L'orientalisme , l'orient créé par l'occident - ED/ Seuil 1980 .

3- P. LAND : Limite des tentatives de synthèse interculturelle – l'exemple de pourville et pham quynthe – 1998 . Internet 4 April 2000 .

4- E. SAID : Op. Citée

5 – صادق جلال العظم : الاستشراق و الاستشراق معكوسا – دار الحداثة – بيروت 1981.

6 – ب. فايشر : الشرق في مرآة الغرب – ديوان المطبوعات الجامعية – الجزائر 1983 .

7- A. PARATE : Quelle Europe ? ED/ Julliard 1991 P. 381 .

8- S. HUNKE : Le Soleil d'Allah brille sur l'Occident – ED / La Maison des Livres – Alger 1987 .

9- H. GIBB ; H. BOWEN : Islamic society and the west - LONDON , OXFORD , University press 1950 .

10 – ب. تيرنر : ماركس و نهاية الاستشراق ، ترجمة يزيد صايغ – مؤسسة الأبحاث العربية – بيروت 1981 .

11 – ح. صاغية : الاستشراق – نظرة موضوعية – مجلة العربي ، العدد 345 ، رمضان 1415 الموافق ل فاير 1995

12 – Organisation (PISAT) : Le dialogue entre les chrétiens et les Musulmans – Internet – 4 April 2000 .

13 – س.حميش : الاستشراق الفرنسي في ركب العلوم الإنسانية– مجلة المستقبل العربي – العدد 162، بيروت 8/ 1992 .

14 – آ. ميتز : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، المجلد الأول و الثاني ، ترجمة : –عبد الهادي أبو ريدة – دار الكتاب العربي ، بيروت 1967 .

15 – أ. بل : الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح العربي إلى اليوم – دار الغرب الإسلامي – بيروت 1981.

16- J. BERQUE : De.l'Euphrate à l'Atlas – T :I – ED/Sindbad - Paris 1978 /

17- P. Bourdieu : Sociologie de l'Algérie . P.U.F Paris 1980 .

18- P. Bourdieu : Algérie 60 structures économiques et structures temporelles ED/ e minuit 1977